المحاضرة الثالثة: وظيفة الشعر

عناصر المحاضرة:

أولا وظيفة الشعر في مختلف العصور

ثانيا وظيفة الشعر في الثقافة العربية

أولا وظيفة الشعر في مختلف العصور:

إن الحديث عن وظيفة الشعر هو عقد لمقارنة بين الإبداع و الثقافة والحضارة ، إن لم نقل بين الإنسان ومبتكراته الإنسانية، وهي الوظيفة التي لم تعدم منذ الخليقة الأولى إلى يومنا هذا، ولعلها وظائف متعددة لا وظيفة واحدة، تتفرع حولها الإجابات بتعدد المداخل النقدية لها، إذ تنطلق هذه الوظائف في مجملها من سؤال الغاية والوظيفة: ما هي غاية الكتابة الشعرية؟ هل هي الجمالية أم الحكمة أم توصيل التجارب الإنسانية؟ هل تتغير وظيفة الشعر بتغير الأوطان والأزمان؟

هذه التساؤلات وغيرها كانت محاور نقدية على مرّ العصور، ففي الحضارة اليونانية شكلت هذه الإشكاليات عصب التساؤل الفلسفي في فلسفة أفلاطون وأرسطو طاليس، حيث استبعد أفلاطون الشعراء من جمهوريته الفاضلة، لأن الفن محاكاة لمحاكاة أو محاكاة من درجة ثانية، بل إن عقول الناس لا تسع أوهام وخرافات الشعراء، ومن ثمة فقد قزّم أفلاطون وظيفة الشعر وحط من قيمته، أما أرسطو فقد خالف أستاذه أفلاطون، حيث ربط الشعر بالجمال والمتعة، وبحث في أصول نشأته، يقول أرسطو في فن الشعر:" ويبدو أن الشعر نشأ لسببين، كلاهما طبيعي فالمحاكاة غريزة في الإنسان....كما أن الناس يجدون لذة في المحاكاة

وسبب آخر هو أن التعلم لذيذ: لا للفلاسفة وحدهم بل لسائر الناس. وإن لم يشارك هؤلاء فيه إلا بقدر يسير .... فلما كانت غريزة المحاكاة طبيعية فينا شأنها شأن اللحن والايقاع، كان أكبر الناس حظا من المواهب، في البدء، هم الذين تقدموا شيئا فشيئا وارتجلوا، ومن ارتجالهم ولد الشعر".

وظيفة الشعر في الثقافة العربية:

بلغت وظيفة الشعر في الثقافة العربية القديمة مبلغ النبوة، فقد روى ابن رشيق القيراوني في كتابه العمدة أن العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك، وصُنعت الأطعمة، واجتمعت النساء، يلعبن بالمزاهر، كما يصنعن في الأعراس ، بل إن الشاعر " شخص منزلته تفوق منزلته البشر عموما " فمع هذه المنزلة ارتقى الشاعر وأصبح "نبي قبيلته وزعيمها في السلم وبطلها في الحرب"،ومن ثمة تصبح وظيفة الشعر كوظيفة الشاعر تماما، فهو لسان عشيرته، وهو حامي القبيلة، ويخلد حروبهم ويشارك في معاركهم، هاجيا العدو بقصائده الشعرية .

وثبتّ الشعر مكانته المرموقة ووظيفته التوجيهية طويلا، فقد تحولت وظيفة الشّعر في مرحلة بعدية إلى وظيفة التّكسب و احتلال المراكز السياسية و الاقتصادية فيما يعرف بشعراء البلاط والمديح، ومن ثمة تعددت وظائف الشعر في الثقافة العربية باختلاف الأزمان والأمكنة، بل اختلفت وظيفة الشعر باختلاف غاياته المعرفية فقد قال الجاحظ" طلبت الشعر عند طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يتقن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا يتقن إلا ما اتصل بالأخبار، وما تعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلاَّ عند الأدباء الكتاب كالحسن بن وهب، ومحمد عبد الملك الزيات"

أوضح الجاحظ من خلال هذا القول، أن الشعر طيّع للحقول المعرفية المختلفة، فيجد فيه النحوي ومفسر القرآن ومؤرخ الآداب والبلاغي وغيرهم غاياتهم فيه، فيذكر الجاحظ الأصمعي ويحيلنا على مرجعيته اللغوية، التى جعلت وظيفة الشعر الاحتفال بالجزل والغريب من اللغة، وبأخبار العرب وأيامهم، كما هو الشأن في شعر امرئ القيس وزهير والنابغة. ويذكر لنا الأخفش لتتحول عنده وظيفة الشعر إلى تيسير قواعد اللغة العربية والانضباط إليها، أما أبا عبيدة فقد كانت وظيفة الشعر عنده هي نقل الأخبار والأيام والأنساب، ويحتفظ الجاحظ بموقفه من وظيفة الشعر بتعداد أصناف طرائق استغلال الشعر خدمة لأهداف معرفية محددة، ثم يذهب بوظيفة الشعر بعيدا عن الاستشهاد به في التقعيد للغة أو مختلف المعارف، إلى الاحتفال بأفانين اللغة والتطريب للترويح عن النفس عند الكتاب الشعراء، الذين يبدعون الشعر صدقا وهواية لا احترافا، كابن وهب والزيات، ممن لا يحتفل بهم التاريخ الرسمي للأدب.

يمكن القول إن وظيفة الشعر كانت تابعة لوظائف المعرفة الإنسانية عموما، وهي وظيفة متطورة بتطور الفن والجمال وعموما، حيث يهدف الشعر إلى« تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان على ماهي عليه خارج الأذهان من حسن أو قبح حقيقة، أو على غير ماهي عليه تمويها وإيهاما».